فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأســـتاذ خليل هنداوى

نقد العقل الخالص La critique de le raison pure

ليست غاية هذا النقد إحباط نتائج العلم النظرى ، ولكن غايته أن يسيّره فى مناهجه الواضحة ، فالعلم النظرى الذى كان فى عهد ما ملك العلوم قد فقد تأثيره ، لأنه قد آلى على نفسه أن يتوجه لمباحث تكاد لا تغنى شيئاً ، يريد من ورائها التحقيق ، وهى - كل يوم - ينقضها من عالم الواقع ألف برهان وبرهان ، ثم انتهى « كانت » الى الشكوكية ، ثم الحيادية التى يقول عنها : « هذه التى تظهر عند تفتح العلوم ، وتعمل على إظهار العلم الذى خانت ولادته ؛ أليست هذه الحيادية من الأشياء التى تسترعى انتباهنا ؟ إنها والحق ليست بوليدة الخفة ، ولكنها وليدة محاكة عصر طويل ، شاء ألاّ ينخدع بظواهر المعرفة كثيراً ، إنها دعوة عنيفة تدعو عقلنا الى عمل عنيف ، الى معرفة نفسه » ، وإنما هى تهذب مجلساً يذود عنها ويصون تعاليمها الصحيحة ، ويحكم عليها إذا ظلمت حسب شرائعها ونظمها الثابتة ، وما هذا المجلس إلا مجلس العقل الخالص

والعقل الخالص عند (كانت) هو العقل نفسه ، قبل أن يدخل الامتحان فى تلافيفه شيئاً ، هو العقل المجرد قبل أن ينطبع فيه شىء ، وفيه ثلاث قوى نفسانية : الأولى قوة المعرفة التى تنطوى على الأدراك والحكم العقلى ، وترتيب الأحكام ، وهى تبحث عن أكناه الأشياء وحقائقها ، والبحث فيها يتعلق بنقد العقل الخالص . والثانية خاصة الارادة ، وهى تبحث عن الخير ، ومرجعها الى نقد العقل العملى . والثالثة هى الشعور بالسرور والشقاء ، وموضوعها الجميل ، ومرجعها الى نقد الحكم

ماذا أستطيع أن أعرف ؟ هذا هو السؤال الذى يضعه الفيلسوف أمام نفسه ، وهو يبتغى حله . إن كل معرفة تبدأ عن طريق الاحساس ؛ فى كل إحساس يجب أن نفرق بين مادتين : بين المادة التى تهدينا اليها حواسنا ، وبين الهيئة التى لا يختلقها العقل من الخارج ، ولكنه يجدها فى نفسها متعلقة بهذه المادة ؛ إن فى عقلنا إدراكات خالصة (pure) مُلهمَة ، كالصور الأصلية المنطبعة فى أذهاننا ، ومن بين هذه الصور الداخلة فى كل امتحان دخولاً اضطرارياً صورتان ، وصفهما (كانت) بدقة ومهارة وحكمة . وهما : « معرفة المكان والزمن » فان هذا القياس ليس له قياس ، أو كما يقول هو عنه ليس له حقيقة مدركة ، وعلمنا المبنى على مثله لن يكون نصيبه من الحقيقة أكبر منها ، إذ ليس للزمن والمكان حقيقة ذاتية ممكن إدراكها ، وما الزمن والمكان إلا مقاييس نسبية ابتدعناها لتساعدنا على إدراك الأشياء ، فهى كالمرآة التى تعكس لنا صورة العالم كما نراه نحن محدوداً بمقاييس الزمان والمكان لا كما بُنى على حقيقته

وفى وجهة أخرى نرى علمنا كله ليس إلا مظاهر ، يضعف ويقوى بحسب الملاحظة ، ولا يكون قوياً الا بنا ، لأنه لا يملك شيئاً من الجزم والقوة بنفسه ، وليس يبعيد أن يكون وراء عالمنا هذا عوالم يدرك أصحابها معنى هذا الوجود ، بخلاف ما أدركته عقولنا ، ويحدونه بمقاييس تتباين عن مقاييسنا ، والحقيقة أننا نهمنا العالم كما نود أن نفهمه ، وأدركناه كما تستطيع مداركنا أن تدركه ، وهذه الحقيقة التى نسجنا نحن خيوطها ستظل محاطة بالروعة والجلال ، ولن تغير الطبيعة نظرتنا اليها حتى تغير أوضاع تفكيرنا وتبدلنا بها أوضاعاً أخرى

وهذه النظرة العميقة هى النقطة التى ترتكز عليها فلسفة كانت ، ومثله الأعلى الذى يفترضه مثلاً أسمى من المثل الشائعة ، فهو يجحد حقيقة العالم الخارجى ، ويرتفع بذاته عن المادية ، ويعتقد أن أدوات معرفتنا أداة للأدراك ، لا تقع تحت سلطان الحواس ، لأنها منعزلة عنها وأسمى منها . وبهذه الأداة نراه ينتقل الى عالم الله والروح والوجود ، ويؤسس على كل عالم منها فكرة ، ولكن حقيقة هذه العوالم برغم أنها شغلت العقل وتشغله وسوف تشغله لا تزال محجوبة عنا ، بل يجد كانت أن تشبثنا بادراكها عن طريق التجربة لا يغنينا نفعاً ، بل يتركنا فريسة الخيالات والاعتراضات المتتالية

الله ، والروح ، والوجود : ثلاثة أكوان متعاقبة لا تبدو للعين حقيقتها

نقد العقل العملى La critique de la raison pratique

للشاعر هنرى هاين دعابة لطيفة ذكرها فى كتابه « ألمانيا » قال فى جملة بحثه عن كانت : « ولما وصل — أى كانت — الى

هذه النقطة التفت وراءه فوجد خادمه الكهل (لامب) يبكي ، فقال كانت : إن لامب ليس له إلـه ... ولـكن لابد له من إلـه يضمن سعادته في العالم» فـكتب كانت إذ ذاك نقد العقل العملي ، وما العقل العملي إلا نفس العقل النظري منتحياً للعمل ، وهو يستمد أصوله من نفسه كالعقل النظري مجرداً من كل تجربة ؛ ترى الشريعة التي يرتبها على نفسه تصير شريعة عامة ، وليست هـــذه الشريعة محدودة بفكرة الخير والشر ، وإنما هي فكرة محدودة بنفسها ، تنبثق من ذاتها وتعود إلى ذاتها ، فما تراه الأخلاق خيراً يكون خيراً وما تراه شراً يكون شراً ، وهذه الشريعة تولد رأساً من الشعور لاتفتقر الى شيء من المنطق ، ولا تحتاج الى نظرة من نظرات العقل ، وإنما هي تفرض نفسها بنفسها إذا فرضت ، كأنها صيغة أمر شامل مطلق ، والشريعة الأخلاقية هي لغة الطبيعة السامية في الانسان ، وقد يسمو الانسان بقدر ما تتجلى فيه هذه الشريعة على قدر ما تواتم أعماله قواعدها

وهكذا جرب كانت أن يجمع كل ما تحتوي عليه الشريعة الأخلاقية في دستور واحد يضم إليه جميع ما يركب الانسان من واجبات في المجتمع ، وهذا هو الدستور أو الكلمة الجامعة التي يريدها الفيلسوف « اعمل دائماً عملك وأنت تتمنى أن الطريق الذي سلكته يصبح شريعة عامة » أليست هـذه الكلمة هي صدى الكلمة القديمة القائلة « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » إن هذه الكلمة لاتحدد إلا علاقة الفرد مع الفرد ، وكلمة (كانت) تضع الانسان الفرد إزاء المجتمع كله ، فاذا قدر للخير أن يمتد سلطانه ويظهر أمره في الأرض فانما تظهره جهود الناس المتضافرة وسمو طبيعتهم العالية ، وهكذا بنى (كانت) على هذه القواعد نظرية جديدة في عالم ماوراء الطبيعة ووجد مجالاً جديداً ليبحث عن الحرية والخلود ووجود الله بعد ماترك العلم النظري هذه العوالم كلها فراغاً يباباً . فاذا كانت الشريعة الأخلاقية فرضاً على الانسان ودِيناً لا مفر منه ، واذا كانت هذه الشريعة واجباً مطلقاً عنده ، فهي ذلك لأنه قادر على إتمامها ، إذاً فالانسان حر ، والحرية هي ابنة الشعور الطبيعي ، والحرية هي ضالة العقل العملي . وقد لا نستطيع أن نثبت وجود الحرية نظرياً ، ولـكنها تستمد وجودها من وجود الشريعة الأخلاقية التي يتوقف فهمها على وجودها . وكذلك الأمر في بقاء الروح ووجود الله

العقل العملي يبعث فينا نشاطاً غريباً يدفعنا الى مثل الكمال . هذا المثل الذي يملك علينا سلطانه كل شيء هو سلطان الخير المطلق .

واذا كان الخير المطلق شرطه الأول هو الفضيلة فهو إذاً داعٍ من دواعي السعادة ، بل يوجب العقل أن تكون الفضيلة والسعادة من عنصر واحد

لنترك الخير المطلق ، ولنعتبر الشريعة الأخلاقية وهماً أو خرافة ، أفلا نؤمن بأن هنالك نظاماً شاملاً للأشياء مؤسساً على معنى السعادة والفضيلة ، وأن هنالك في قلب الكون علة عاقلة تحكم وتسيطر وتربط بين الأجزاء وتؤلف وتفكك ، وهـذه العلة تحتم وجود الله ؟

وهكذا ترى العقل العملي يقدر له الأثبات بغير برهان ، والعقل النظري يعجزه أن يبرهن ، ويتساءل (كانت) عن سر التنازع بين العقلين :

ولـكن أليست الطبيعة التي ابتلت أحدهما بالعجز والوهن هي القاسية ؟ ولـكن لنفرض أن الطبيعة قد وافقتنا على أمانينا ، ومنحتنا ما تمنيناه منها ، ووهبتنا أنوار الهداية التي نهيم فيها ، ولنفرض أن البعض مناقد ملك عليها ، فماذا تكون النتيجة ؟ أتدروها ؟ سيكون الآلـه بعظمته وروعته متمثلاً في أعيننا وفي أنفسنا ، نطيع شريعته المرسومة طاعة عمياء لا نحيد عنها ولا نعتسف طريقها ، ولـكن أعمالنا هذه لايقودنا إليها الا عصا الرهبة تأتيها خالية من الفضيلة المبتغاة لذاتها ، وهل يكون كل إنسان في كل ما يأتيه الا كالآلة الميكانيكية تأتي ما يُطلب منها وتؤمر به غير واعية ولا شاعرة ؟ إن كل شيء يمشي في السبيل القويم ؛ ولـكنك تتلمس باطلاً نسمة الحياة تلفح هـذه الوجوه الشاحبة التي أكلها السأم ...

والآن ، ونحن على هذه الحالة قد دلتنا الـكائنات على عظمة المبدع ونزل فينا شرائعه الأخلاقية من غير أن تمنينا بالوعود أو تروعنا بالوعيد ، وانفسح لـكل واحد منا سبيله يبلغ به المثل الأعلى في الوجود

وفي النهاية يقول كانت إن النظام الآلـهي مؤسس على شريعة الأخلاق ، فاذا وُجد الله ، واذا خلدت الروح فذلك لأنني أشعر بأني أحيا حراً ، وأن حريتي بدون وجود الله وخلود الروح تغدو وهماً باطلاً . الآلـه الحقيقي — عند كانت — هو الحرية ، وما آلـه الديانات الا وزيره الأول ، وهو يحترم الدين بقدر ما يرعى للأخلاق والفضيلة عهودها وذممها ، ويرى أن ممارسة الخير هي أسمى عمل يحبه الله

يتبع

خليل هنداوي